هل أنتم تصومون ؟!

ناهض منير الريس

(مقال مهدى إلى الأخ العزيز الأستاذ اسماعيل هنية)

ذهب في الأسبوع الماضي أحد أبناء غزة المعروفين بالاستقامة والجد والرقي إلى دائرة ذات علاقة بأبناء المدينة . وهناك التقى بالمدير العام لتلك الدائرة لمراجعته حول موضوع خاص بعمل ذي صفة استثمارية يمارسه . وأثناء المراجعة ورد على لسانه عرضا ذكر رمضان القادم ودواعيه . فإذا بالمدير العام ، وهو مهندس شاب ملتح مستجد على المنصب يسأل المواطن المراجع : وهل تعرف متى يحل رمضان ؟ فأجابه المواطن : في أوائل شهر أيلول سبتمبر القادم . وإذا بالمدير العام يتهكم سائلا : وهل أنتم تصومون ؟!

لم يكن بين الاثنين سابق معرفة ولذلك لم تكن هناك مناسبة للمزاح . ولم يكن معنى السؤال الذي ألقاه الملتحي على المواطن إلا أنه يحقد عليه حقدا طبقيا أو عشائريا أو عنصريا أو مهنيا ويتهمه في دينه ويحاول التعريض بضميره وعقيدته . وذلك واضح بما فيه الكفاية . ولكن الذي لم يفهمه المواطن المذكور هو المقصود بـ (أنتم) في ذلك السؤال . أهو عائلة الرجل ؟ أم الذين يمتهنون مهنته نفسها ؟ أم المراجعون الثقلاء الذين يتطفلون على خلوة المدير العام المشغول بالنظر في المرآة ومخاطبة نفسه مرة بعد مرة " افرح يا مدير يا عام " ؟

ولم يستطع المراجع أن يبتلع الإهانة والتعريض والمزايدة باللحية على دين الناس ، فذهب إلى رئيس ذلك المدير الذي لم يقصر في إبداء الاهتمام

والاعتذار وتعليل الأمر بأنه مجرد مزاح حتما . وحين سمعت من المواطن المراجع تلك القصة حدثت بها الوزير فعللها بدوره أنها مزاح حتما !

ورأيي أن المسألة لا يجوز أن تنتهي عند هذا الحد . فهي ليست قضية شخصية . ولكنها قضية تتصل بالأسلوب الذي يستخدمه بعض المستجدين على الوظائف في العهد الجديد . فهؤلاء ما كادوا يبصرون أنفسهم في مراكزهم حتى طاش صوابهم .. . على خلاف معظم القياديين الكبار الذين هم أشد الناس دماثة وتواضعا وسعة أفق ، والذين يعرفون أن المنصب وسيلة لخدمة الناس ويفهمون جيدا أن القرض الحسن الذي يقرضه الإنسان لله تعالى هو العمل في خدمة الناس . .

أما بعض المستجدين على المناصب فقد طاش صوابهم حقا . ولأنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا ما طرأ عليهم فقد تبنوا اعتقادا مفاده أنهم إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل انتصارهم وهزيمة الآخرين وأن (دين محمد قام بالسيف) كما قالها طائشون من قبل . فراحوا يفتعلون الاحتكاك بالبعض إلى درجة الصدام لكي يتأكدوا أنهم كبروا حقا وصار لهم سلطان .

ولما كانت هذه القلة تدعي التمسح بالدين وتمارس مظاهره فقد استخدموه لحسابهم الخاص ونسبوه لأنفسهم ولم ينسبوا أنفسهم إليه .

إن هذا الذي سولت له نفسه أن يحك حزازة صدره بالتعريض بدين المواطن المراجع والتهكم على سلوكه الذي لا يعرف عنه شيئا في صيام رمضان ، قد فعل ذلك من باب الكبر والمزايدة متوهما أنه صاحب كهنوت ديني لا يدخله إلا الذين هم على شاكلته . علما أن الإسلام ليس كهانة . وأن اللحية ليست هي جواز المرور للدخول إلى ملكوت السماوات . بل إنها لن تكون يوم القيامة حاجزا ومانعا من دخول النار وبئس المصير إذا أجرم الملتحي في حق الدين .

وهذا الذي اجترأ وهو في مقعد المنصب الكبير على إهانة المواطن المراجع دون سبب ودون مناسبة ، ولمجرد أن في نفسه سما يسري ولا يدري أحد منذ متى نبع ، قد أجرم بحق الحركة التي أحسنت الظن به فأوكلت إليه مسؤولية تمثيلها في مواجهة المواطن . وقد فعلت ذلك وهي تتصور أنه سوف يحافظ على الصلة بين الحركة وبين المواطن الذي انتخبها وجاء بها وببرنامجها إلى الحكم .

إنه إذن معول سياسي هدام ما دام على رأس منصبه ، يهدم العمل الإيجابي الذي أنجزه غيره . ويشوه معنى الدين وسمعة أهل الدين . ويسيء إلى الناس وإلى الوحدة الوطنية .

ومن هنا فإن على المسؤولين أن ينتبهوا إلى مثل هذه النماذج المسيئة وأن لا يسمحوا لها بالاستمرار في الإساءة للدين وللحكم وللمواطنين . ولن يكون من الحكمة ولا من الحزم التقليل من أهمية تصرفات هؤلاء وخطورتهم على التجربة القائمة وعلى شعار الإصلاح والتغيير بدعوى كلمة (معلش) و (بسيطة) و (بلاش مبالغة) .

إننا نعرف طبعا أن مشكلة العثور على الكوادر المناسبة التي تتوفر فيها الثقة والخبرة معا من المشاكل الصعبة ، وأن الحديث عنها أسهل من معالجتها . ولكن تجاهل المشكلة أو مرور الإساءات دون تصرف يستأصل هذا النوع الجديد من الفساد يعني أن اعتبار محاباة المسيئين بسبب انتمائهم الحزبي قد تغلب على المصلحة العامة بما فيها مصلحة الحكم ومصلحة العلاقة مع جمهور الناس .

لا يجوز التهاون أبدا مع ظهور هذا النوع من الفساد . فالحزم والبناء يقضيان بالسرعة في متابعة هذه الحالات . وعلى الإخوة المسؤولين أصحاب الأمانة أن يتذكروا أن قماشة الناس واحدة لأن الأجيال تلقت تربية

ضعيفة واحدة في البيوت ولذا يتشابه الأفراد في الجوهر إلى حد بعيد وإن اختلفوا في القشرة الخارجية . والتدين قد لا يزيد عن كونه قشرة رقيقة أو سميكة إذا لم يعمل الدعاة المخلصون على تعميقه والسهر على مطابقة الظاهر بالباطن والشعار بالممارسة . وكنت قد حضرت لقاء هاما بين رئيس الوزراء السيد هنية وكوادر وزارة العدل ومجلس العدل الأعلى والنيابة العامة . وسرني وأثلج صدري ساعتها أن أسمع الأستاذ هنية يستغرق من الوقت في الدعوة إلى تعميق الشعور بالدين ومراقبة الله في السر والعلن والتلاوة اليومية للقرآن الكريم وقتا يزيد على الوقت الذي خصصه للملاحظات القانونية والفنية والإدارية التي كان من الواضح أنه جمعها من أفواه الناس ومن اتجاهات الرأي العام . وفهمت من ذلك أن الرجل وضع يده على علة من علل الممارسات وأنه محيط بأن الفساد في إن كان قد ظهر في العهد السابق في أشكال معينة فإنه في العهد الحالي قد يظهر في أشكال أخرى مختلفة . ويقيني أن من أسوأ أشكال الفساد الاستعلاء على الناس والكبر بدعوى حق موهوم لصاحب المنصب في الحكم على ضمائر الناس حدسا وامتلاك السلطة لتصنيفهم بالغيب : هذا يصوم وهذا لا يصوم .. وهذا من جماعتنا وهذا من عدونا .. مثلما فعل ابن عمرو بن العاص مع الغلام القبطي حين ضربه لأنه سبقه في الجري قائلا له : كيف تسبقني وأنا ابن الأكرمين ؟ فجاء عمر بالولد وبأبيه الوالي على مصر عمرو بن العاص وأحضر الصبي القبطي وأهله وأمره بضرب ابن الأكرمين ، ثم قال له بعدما فرغ من اقتضاء حقه : والآن ضع العصا التي ضربت بها على صلعة أبيه !!

لقد كان عمرو بن العاص من هو في مكانته في المجتمع القرشي . وكان شخصية يؤبه لوزنها ودهائها وسابقتها في الإسلام . ولم يمنع ذلك عمر بن

الخطاب رضي الله عنه من إقامة الميزان ليقطع دابر التباهي والتطاول والكبر والاستعلاء على الناس .

أما كفانا مأساة أن الثورة التي قامت في قطاع غزة قبل عام وكانت ضرورية جدا وحتمية جدا رافقها عمليا للأسف أكبر انقسام في حياة الشعب العربي الفلسطيني ؟ هذا الانقسام الذي يتحتم العمل على التخفيف منه وإزالته بالتدريج . وهل يكون ذلك ممكنا إلا بواسطة التعامل الطيب الودود الحصيف واستئصال السمجين الفرحين واستبدالهم بأناس أرجح عقلا وأحسن أدبا وأشد إيمانا لا سيما في المرافق التي يكثر فيها احتكاك المسؤول الذي يمثل العهد مع جمهور المواطنين . أما عنجهية بعض الملتحين الذي نسبوا الدين إلى أنفسهم ولم ينسبوا أنفسهم إلى الدين فتلك التي تصب زيتا على النار وتوسع حلف الشر ضد العهد ورجالاته الحقيقيين . وكما حدث شيء من هذا في نطاق مرفق الشرطة والأمن وتم وضع حد لبعض التجاوزات والأخطاء يجب أن يتكرر في غير ذلك من الميادين .

لقد سبق أن أصدرت في العام ٢٠٠٠ في العهد الماضي كتابا بعنوان (ألف عدو خارج البيت) وشرحت حينها أن ذلك هو الشطر الأول من مثل قديم ، وأن الشطر الثاني هو (ولا عدو واحد داخله) . وأراني راغبا اليوم أن أذكر إخوتنا الذين ساق ربنا إليهم مسؤولية الأمانة تجاه المرابطين في أرض الرباط بالمثل نفسه ، لأن الأعداء خارج البيت كثيرون . وهناك أعداء داخل البيت . فلا يكن هناك أعداء من صنف المسؤولين الذين جرى إسناد المناصب الهامة لهم سهوا وخطأ والذين قابلوا الثقة بالغدر والإساءة .